

الأنثروبولوجيا البنائية

جوليا كريستيفا

بعد أن أخضع الشكلايون الروس الأدب لتحليل شبه بنائي، مستلهمين تطوّر اللسانيات في منتصف قرننا هذا، أصبحت الأنثروبولوجيا الميدان الرئيسي الذي طُبّق فيه منهج قريب من منهج اللسانيات. ويمكننا القول، بالتالي، بأن الأنثروبولوجيا البنائية - ودون أن تقدّم نفسها، صراحة، باعتبارها سيمياء (Sémiologie)، ودون أن تنكب على التفكير في طبيعة العلامة وعلى استكشافها بالضغط - هي سيمياء، مادامت تعتبر الظواهر الأنثروبولوجية بمثابة لغات وتطبق عليها إجراءات الوصف الخاصة باللسانيات.

أكد أن الأنثروبولوجيين، منذ **موس (Mauss)**، كانوا يهتمون بالمناهج اللسانية قصد أن يستمروا منها خبراً، اشتقاقياً على الخصوص، يوضح الطقوس والأساطير؛ إلا أن الفونولوجيا [كما هي عند **تروبتسكوي (Troubetzkoï)** هي التي وجدت نفسها تمثل المجددة القوية لهذا التعامل، مثلها في ذلك مثل تصور اللسان باعتباره نسقاً للتواصل.

وقد كتب **لوفي ستروس**، مؤسس الأنثروبولوجيا البنائية الفاشحة على المناهجية الفونولوجية، سنة 1945، قائلاً: «لا يمكن للفونولوجيا إلا أن تلعب، تجاه العلوم الاجتماعية، نفس الدور المجدد الذي لعبته الفيزياء النووية، مثلاً، بالنسبة لمجموع العلوم الدقيقة». وفعلاً، فإن الإجراءات الفونولوجية قد طبقت على أنساق القرابة [المتسمية] للمجتمعات المسماة بدائية.

كانت التفاصيل الاصطلاحية وقواعد الزواج، كل من جهته، قبل هذا الالتقاء الذي تم بين الفونولوجيا والأنثروبولوجيا، تعزى إلى هذا العرف أو ذاك، دون أن نشيخ فيها أي مظهر نسقي؛ والحال أن أنساق القرابة تشهد - مع كونها نتيجة فعل عوامل تاريخية متنافرة عديدة - على انتظام أكيد إذا نحن نظرنا

إليها في مجموعها الترامني. فهناك، مثلاً، أنساق خطية أبوية أو خطية أموية يتم فيها تبادل النساء حسب نظام معين، حيث يُسمح بالزواج بهذا القريب أو ذلك العضو من نفس القبيلة أو من قبيلة قريبة أو بعيدة، ويمنع مع نوع آخر من الأقارب أو مع عضو من قبيلة من نوع آخر. وفي مواجهة هذا الانظام يطرح لهقي ستروس الميثاق بين أنساق القرابة وأنساق اللغة: «يحدد عالم الاجتماع نفسه عند دراسة مشاكل القرابة (وعند دراسة مشاكل أخرى، أيضاً، دون شك) في وضعية مماثلة من الناحية الصورية لوضعية العالم اللغوي الفونولوجي: إن مصطلحات القرابة، مثلها مثل القوانين، هي عناصر دلالية، وهي، مثلها، لا تكتسب هذه الدلالة إلا بشرط هو أن تنتمي في نسق، ويقوم الفكر، على مستوى الفكر اللاواعي، ببلورة وأنساق القرابة» مثلها في ذلك مثل «الأنساق الفونولوجية»، وأخيراً فإن تواتر أشكال القرابة وقواعد الزواج والمواقف المقررة بشكل متبادل بين بعض الأنواع من الأقارب، الخ، في مناطق متباعدة من العالم وفي مجتمعات مختلفة عن بعضها البعض اختلافًا حقيقاً، يجعلنا نعتقد بأن الظواهر القابلة للملاحظة، سواء في هذه الحالة أو تلك، ناجمة عن لعبة القوانين العامة، لكن الخفية. وبالتالي يمكن للمشكلة أن تصاغ بالكيفية التالية: إن ظواهر القرابة، في نظام آخر للواقع، هي ظواهر من نفس نوع الظواهر اللسانية. فهل يستطيع عالم الاجتماع - وهو يستعمل منهجاً مماثلاً فيما يخص الشكل (إن لم يكن فيما يخص المحتوى) للمنتج الذي أدخلته الفونولوجيا - أن يجعل عمله يحقق تقدماً مماثلاً للتقدم الذي تحقّق في العلوم اللسانية؟.

من الطبيعي أنه ينبغي للأنتروبولوجي البنائي، انطلاقاً من هذا البدء الأساسي، أن يحدد عناصر نسق قرابة ما، كما يحدد اللساني الوحدات الأساسية لنسق لساني ما، «ويحدد» في نفس الوقت العلاقات الخاصة بهذه العناصر داخل البنية. لقد أثبتت الملاحظات الإثنو-منطقية أن الحزولة (إبلاء الأهمية الأساسية للحال) هي أبسط بنية قرابة يمكن تصوّرها. فهي تقوم على أربعة أطراف: الأخ والأخت والأب والابن، المتحدّين فيما بينهم (كما في الفونولوجيا) على هيئة زوجين من التعارضات الترابطية (أخ/أخت، زوج/زوجة، أب/ابن، حال/ابن أخت)، بحيث إنه توجد دائماً، داخل كل

جيل من الجيلين المعنيين، علاقة إيجابية وعلاقة سلبية. وإن محور أخوة الزوجة
حتفي ومركزي إلى حد أن بنية القرابة تنبني حوله.

وسيدي أن إقامة مثل هذه القواعد التي تذكر بالقواعد القبولوجية
ليست ممكنة إلا إذا نظرنا إلى القرابة باعتبارها نسقا للتواصل، وإذا شبهناها،
من ثم، باللغة. وفعلاً، فإننا نسق بالنسبة لبقية ستروس الذي يحل أن
«رسالة نسق من القرابة هي» تسمية الزمرة اللذان يجري تداولهما بين العائش
أو السلالات أو العائلات (وليس عن طريق كلمات الزمرة المتداولة بين
الأفراد، مثلما هو الحال في اللغة ذاتها). وإطلاقاً من هذا التصور لقواعد
القرابة باعتبارها قواعد للتواصل الاجتماعي، يعارض لبقية ستروس ما اعتاد
عليه الأنثروبولوجيون من ترتيب هذه القواعد إلى أصناف متناهية تطلق عليها
أسماء مختلفة: حظر المحارم، أنواع تداخلية من الزواج، الخ، ويرى أنها
«تمثل كلها طرقاً لظهور تداول النساء ضمن الزمرة الاجتماعية، أي أنها تضمن
تعويض نسق من علاقات القرابة الدموية، ذي الأصل البيولوجي، بنسق
سوسيولوجي من التحالف. وبمجرد صياغة فرضية العمل هذه لا يبقى علينا
سوى الشروع في دراسة كل أنواع التبادل التي يمكن تصورها بين ن من
الشركاء دراسة رياضية لتستنبط منها قواعد الزواج السارية في المجتمعات
القائمة. وقد تكتشف، في نفس الوقت، قواعد أخرى تطابق مجتمعات
ممكنة. وستفهم أخيراً وظيفة ونمط عملتها والعلاقة بين أشكال مختلفة».

وليس مطروحاً علينا هنا تحليل مجمل الدقة التي يقيم لبقية ستروس عن
طريقها أنساق القرابة خلال بحثه الذي يعتبر كتابه «البنات الأولية للقرابة»
(1949) حصيلة العظمى. وإنما نحن نريد فقط أن نسجل كيف صارت
إشكالية اللغة، بل وكيف أصبح علم خاص باللسان هو القبولوجيا، رافعة
لعلم جديد في ميدان آخر، [هو ميدان] الأنثروبولوجيا البتائية، ممكنة إياه،
عل هذا النحو، من اكتشاف القوانين الأساسية التي يعتمد عليها التواصل،
أي المجموعة البشرية.

هل يعني هذا أن نظام اللغة مماثل تماماً لنظام الثقافة؟ إذا لم تكن هناك
أية علاقة بين الاثنين فإن النشاط البشري سيكون [عبارة عن] فوضى غير

مناسبة، دون أن تكون هناك أية علاقة بين مظهراتها المختلفة. إلا أننا نلاحظ غير هذا. لكن إذا كان تقاطب النظامين شاملاً ومطلقاً فإنه سيفرض نفسه دون إثارة مشاكل. وبعد أن سجل ليقي ستروس هذه الملاحظة [تجدد] يجتاز موقفاً وسطاً سوف لن تكون مبالغين إذا نحن ذكرنا به أولئك الذين يعملون على بناء علم جديد، هو السيمياء، يفهم بوصفه علماً لقوانين الاشتغال الرمزي: «من المحتمل أن تكون بعض الترابطات قابلة للاكتشاف بين بعض الوجوه وعلى بعض المستويات، والمقصود، بالنسبة لنا، هو معرفة ما هي هذه الوجوه وما هي هذه المستويات. وفي إمكان الأنثروبولوجيين واللغائيين أن يتعاونوا على هذه المهمة. لكن المستفيد الرئيسي من اكتشافاتنا المحتملة لن يكون الأنثروبولوجيا ولا اللسانيات كما تتصورهما حالياً، فالذي سيستفيد من هذه الاكتشافات هو علم قديم جداً وجديد جداً في آن واحد، إنه أنثروبولوجيا مفهومة في أوسع معانيها، أي معرفة بالإنسان تجمع مختلف المناهج وتختلف الفروع المعرفية، سنكتشف لنا، في يوم ما، عن النواحي السرية التي تحرك هذا الطيف، الحاضر دون أن يكون مدهواً لنا [حضور] نقاشاتنا: [ألا وهو] العقل البشري».

نقل النص عن الفرنسية: محمد بولعبش

● العنوان الأصلي للنص: «L'ANTHROPOLOGIE STRUCTURALE»

من كتاب: «اللغة، تلك المجهول» (Le langage, cet inconnu)

منشورات سوي (Seuil) باريس، 1981، من ص: 296 - 299.

صدر العدد 4 من مجلة:

دراسات أدبية ولسانية

(مجلة فصلية متخصصة)

من ب: 2769

البريد المركزي - فلس

صدر العدد 4 من مجلة:

دراسات سينمائية

(مجلة اقليمية لوطية للأدب السينمائي)

من ب: 377 - القنطرة